لزوم مـــا لا يلزم

متى نُظم وكيف نُظم ورُتب ؟

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

كانت أمور الشام ولا سيما البلاد الشمالية فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس مضطربة بين سلطان الفاطميين والأمراء المتغلبين من بنى حمدان ومواليهم ومن رؤساء القبائل العربية . وقد استولى صالح بن مرداس الكلابى صاحب الرحبة على حلب فى هذا الاضطراب سنة ٤٠٢ . ثم وقعت خطوب ردّت حلب إلى سلطان الفاطميين حيناً . فلما قتل نائب الفاطميين عزيز الدولة سنة ٤١٢ ، وتولى من قِبَلهم ابن شبانة طمع صالح ابن مرداس فى التغلب على نوّاب الفاطميين فحالف اثنين من رءوس العرب هما حسّان الطائى وسنان بن عُليّان الكلبى واتفقوا على أن يقتسموا الشام من حلب إلى حدود مصر . فصارت حلب وما يليها لصالح ، ودمشق لسنان ، والرملة وما يليها إلى مصر لحسّان . وذلك عام ٤١٤ . وقد تقدمت أبيات المعرى التى تذكر هذا التقسيم .

هذه حوادث وقع بعضها فى العَقد الأول من القرن الخامس ومعظمها فى العَقد الثانى . فهذه الأبيات قد نظمت كذلك فى هذين العقدين ولا سيما الثانى منهما .

ثانياً — يُذكر صالح بن مرداس فى اللزوميات مرات أُخر لحادث آخر كان له فى نفس المعرى أثر باق .

نقل ياقوت عن أبى غالب بن مهذب المعرى فى حوادث سنة ٤١٧ من تاريخه : « صاحت امرأة يوم الجمعة فى جامع المعرة وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغتصبها نفسها . فنفر كل من فى الجامع وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه . وكان أسد الدولة (صالح) فى نواحى صيدا فوصل الأمير أسد الدولة فاعتقل من أعيانها سبعين رجلا . وذلك برأى وزيره تادرس بن الحسن الأستاذ . وأوهمه أن فى ذلك إقامة للهيبة — قال ولقد بلغنى أنه يُدعى لهؤلاء المعتقلين بآمد وميافارقين على المنابر — وقطع تادرس عليهم ألف دينار . وخرج الشيخ أبو العلاء المعرى إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة وقال له : مولانا السيد الأجل أسد الدولة ومقدّمها وناصحها كالنهار الماتع اشتد هجيره وطاب بَرداه ، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حدّاه . خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين .

فقال صالح قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قُطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه » .

ويقل ياقوت أيضاً عن القفطى أنه وجد على ظهر ديوان الأعشى فى مدينة قفط سنة ٥٨٥ ما يأتى : « حكى أن صالح ابن مرداس صاحب حلب نزل على معرة النعمان محاصراً لها ونصب عليها المجانيق واشتد فى الحصار لأهلها فجاء أهل المدينة إلى الشيخ أبى العلاء لعجزهم عن مقاومته لأنه جاءهم بما لا قبل لهم به وسألوا أبا العلاء تلافى الأمر بالخروج إليه بنفسه وتدبير الأمر برأيه إمّا بأموال يبذلونها أو طاعة يعطونها . فخرج ويده فى يد قائده وفتح الناس له باباً من أبواب معرة النعمان ، وخرج منه شيخ قصير يقوده رجل . فقال صالح هو أبو العلاء فجيئونى به . فلما مثل بين يديه سلّم عليه ثم قال : الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع الخ .

وهذه الحادثة ذكرها المعرّى فى موضعين من اللزوميات فى حرف الدال المكسورة واللام المكسورة . يقول :

تغيّبت فى منزلى بُرهة ستيرَ العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقلّ وحُمّ لروحى فراقُ الجسد
بُعثتُ شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمعُ منّى سجع الحمام وأسمعُ منه زئير الأسد
فلا يعجبَنّى هذا النفاق فكم نفّقت محنة ما كسد

ويقول :

آليت أرغب فى قميص مموّه . فأكون شارب حنظل من حنضل
نجّى المعاشر من براثن صالح ربٌّ يفرّج كل أمر مُعضل
ما كان لى فيها جناحُ بعوضة والله ألبسهم جناحَ تفضّل

فهاتان القطعتان نظمتا فى حادث وقع سنة سبع عشرة وأربعمائة . والظن أن نظمهما لم يتأخر عن هذا التاريخ كثيراً .

ثالثاً — يذكر الشاعر « محموداً » فى مواضع كثيرة يقول :

يسلك محمود وأمثاله طريق خاقان وكنداج

* * *

أُسَرُّ إن كنتُ محموداً على خلُقٍ
ولا أُسرُّ بأنى المَلك محمـــود
ما يصنع الرأس بالتيجان يعقدها
وإنما هو بعد الموت جُلمود

* * *

لا كانت الدنيا فليس يسرّنى أنى خليفتها ولا محمودها

* * *

سيموت محمود ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاّق
فمن مُبلغ عنى المآلك معشرا عليّاً ومحموداً وخانا وآلكا
فلا أتمنّى أننى كأحدكم
ولكن أضاهى المقترين الصعالكا

وكلمة آلك فيما أظن ، يريد بها المعرى أِلك خان وهو لقب لبعض ملوك تركستان الذين قامت لهم دولة بين سنة ٣٢٠ وسنة ٦٠٩ ، والظاهر أن أول من لقب منهم أِلك خان هو نصر بن على فاتح ما وراء النهر المتوفى سنة ٤٠٣ . فهذا دليل على أن هذه الأبيات نظمت بعد هذا التاريخ . وأما عليّ المذكور فى البيت فلم أعرف من هو إلا أن يكون علياً أسد الدولة أحد أمراء بنى مزيد تولى الملك من سنة ٤٠٣ إلى سنة ٤٠٨ .

ومن محمود الذى كرر المعرى ذكره وجعله مثلا فى الملوك وقال إنه لا يسرّه أن يكون فى منزلته ، وإن الدهر سيبطش به كما بطش بالضعفاء ؟

فى تعليقات الطبعة المصرية أنه أمير المعرة إذ ذاك . ولا نعرف من تولى فى تلك النواحى ذلك العصر إلا محموداً حفيد صالح ابن مرداس . ومحمود هذا تولى الإمارة سنة ٤٥٢ وخلع فى السنة التالية ، ثم تأمر مرة أخرى سنة ٤٥٤ ، فدامت له الإمارة حتى سنة ٤٦٨ . فقد تولى بعد وفاة المعرى .

ولا أدرى لماذا أثبت الشيخ اليمنى البيت الأول : « يسلك محمود ... الخ » أولَ فصل من كتابه عن المعرّى عنوانه : « هو ووزيره محمود بن نصر بن صالح » . نقل فى هذا الفصل ما يقال عن تدبير محمود هذا لقتل المعرى وخلاص المعرى بالدعاء . وهى خرافة عمرويّة نقلها الشيخ اليمنى وقال إنّ محموداً تولى بعد وفاة المعرى كما قلتُ . فهل اليمنى ، مع نفيه هذه الخرافة ، يظن أن محموداً الذى فى البيت هو حفيد صالح ذكره المعرّى قبل تولّيه الملك ؟ لا أدرى لماذا أثبت هذا البيت فى فاتحة هذا الفصل .

والذى أراه أن محموداً الذى أكثر المعرى ذكره هو سلطان ذاع صيته فى ذلك العصر وضرب المثل بقدرته وغناه ، هو يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين فاتح الهند . ولهذا قرنه المعرى بالخليفة فى البيت :

لا كانت الدنيا فليس يسرّنى أنى خليفتها ولا محمودها

والسلطان محمود تولى من سنة ٣٨٧ إلى سنة ٤٢١ . فهذه الأبيات التى تضمنت اسمه نظمت قبل سنة ٤٢١ ولا ريب ؛ لأن المعرى يذكره ذكر الأحياء ، ويقول : سيموت محمود ... الخ » . ويؤكد ما رأيته فى محمود هذا أن الشاعر يقول فى اللزوميات أيضاً :

محمودنا الله والمسعود خائفه فعدّ عن ذكر محمود ومسعود
ملكان لو أننى خيّرت مُلكهما
وعُود صَلب أشار العقل بالعود

ومسعود هو ابن السلطان محمود استقر له الملك سنة ٤٢١ بعد أن ظفر بأخيه محمد . وبقى له السلطان حتى سنة ٤٣٢ . وأما السلطان محمود السلجوقى وأخوه مسعود فقد ملكا فى القرن السادس الهجرى .

رابعاً — كان أبو القاسم المغربى الوزير ممن أقام بالمعرة ، وكان يوادّ المعرى ويراسله ، وكان المعرى يحفظ له ولأبيه من قبلُ أياديه . فلما توفى رثاه بأبيات مثبتة فى اللزوميات . ولا أعرف فيها رثاء لغيره أو مدحا صريحاً .

ليس يبقى الضرب الطويل على الده
ر ولا ذو العَبـــالة الدرحايه
يا أبا القـــاسم الوزير ترحّا
ت وخلّفتنى ثِقـــال رحايه
وتركت الكتب الثمينة للنا س وما رحت عنهمُ بسَحايه
ليتنى كنت قبل أن تشرب المو ت أصيلاً شربتُه بضُحايه
إن تحتّك المنون قبلى فإنى منتحاها وإنها منتحايه
أمْ دَفُر تقول بعدك للذا ئق لا طعم لى فأين نَحايه
إن يَخُطّ الذنبَ اليسير حفيظا
ك فكم من فضيلة محّايه

وهذا الوزير توفى سنة ٤١٨ . فهذه القطعة نظمت فى هذه السنة .

خامساً — يقول المعرى :

ألم ترَ وجميع الأنام في دولة الكذب الذائل
مضى قيلُ مصر إلى ربّه وخلّى السياسة للخائل
وقالوا يعود فقلنا يجوز بقدرة خالقنا الآئل
إذا هبَّ زيد إلى طيّىء وقام كليب إلى وائل

أظن أن قيل مصر المعنيّ في هذا البيت هو الحاكم بأمر الله الفاطميّ ، فهو الذي انتظر بعض الناس عودته . والحاكم هلك سنة ٤١١ . فالظاهر أن هذه الأبيات نظمت قريباً من هذا التاريخ .

(ب) سن المرء في اللزوميات :

يذكر المرء سنّه في اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ؛ تارة يقول بلغت كذا أو جاوزت كذا ، وتارة يقول : إذا بلغ الإنسان كذا آن له أن يرعوي أو حان له أن يهلك . وقد عبرت اللزوميات مستقصياً الأبيات التي يذكر فيها سنّه ؛ فإذا هو يذكر الأربعين مراراً ويذكر الخمسين كثيراً ولا يذكر ما دون الأربعين إلا مرة واحدة قدمت الكلام فيها ، ويذكر السبعين مرة سأثبتها من بعد .

يقول في الهمزية التي افتتح بها اللزوميات :

إذا ما خبت نار الشبيبة ساءني ولو نُصّ لي بين النجوم خباء
أراني في الودّ الذي قد بذلته فأُضعِف إن أجدى لديك رياء
وما بعد مرّ الخمس عشرة من صبا ولا بعد مرّ الأربعين صباء

* * *

ويقول :

خبَر الحياة شرورها وسرورها
من عاش مدة أول التقارب
وافى بذلك أربعين فما له عذر إذا أمسى قليل تجارب

. . .

ومتى سرى عن أربعين حليفها
فالشخص يصغر والحوادث تكبر

. . .

ورميت أعوامي ورأي مثل ما رمت المطيُّ مهامه السُّفّار
وركبت منها أربعين مطيّة
لم تخلُ من عَنَتٍ وسوء نِفار

. . .

شربتُ سِنِيَّ الأربعين تجرّعا فيا مَقِراً ما شُربهُ فيَّ ناجع

ويجوز أن تدل هذه القطعة أنه بلغ ثمانياً وأربعين :

عش يا ابن آدم عدة الوزن الذي
يُدعى الطويلَ ولا تجاوز ذلكا
فإذا بلغت وأربعين ثمانيا فحياة مثلك أن يوسَّد هالكا

وأما ذكر الخمسين فأكثر وأصرح :

حياتي بعد الأربعين منيّة ووجدان حِلف الأربعين فقود
فما لي وقد أدركت خمسة أعقُد .
أبيني وبين الحادثات عقود ؟
إذا كنتُ قد جاوزت خمسين حجة
ولم ألق خُسرا فالمنيّة لي ستر
وما أتوقّى ، والخطوب كثيرة ،
من الدهر إلا أن يحلّ بي الهتر

. . .

إذا طلع الشيب اللمّ فحيِّه ولا ترضَ للعين الشباب المزوَّرا
لقد غاب عن فوديك خمسين حجّة
فأهلاً به لما دنا وتسوَّرا

. . .

وما العيش إلا لُجّة باطليّة ومن بلغ الخمسين جاوز عمرها

. . .

أخمسين قد أفنيتها ليس نافعي
بتأخير يوم أن أعضّ على خمس

. . .

لا خير من بعد خمسين انقضت كَمَلا
في أن تمارس أمراضاً وأوجاعا

. . .

خمسون قد عشتها فلا تعش والنعش لفظ من قولك انتعش

. . .

عَلِقتُ بحبل العمر خمسين حجة فقدرتُ حتى كاد ينصرم الحبل

. . .

كأنك بعد خمسين استقلّت لولدك ، البناء دنا ليهوي

وقد ذُكرت الخمسون في ثلاث قطع أخرى ، في حرف الطاء والكاف والميم . ولم تذكر الستون في اللزوميات قط . وجاء ذكر السبعين في قوله :

من عاش سبعين فهو في نصب . وليس في العيش بعدها خيره

(يتبع)

عبد الوهاب عزام